الحلقة التاسعة والعشرون

طه حسين

كان (طه حسين).. بحق علم أعلام الثقافة والأدب والفكر العربي طوال سنوات القرن العشرين.. حتى لُقب في منتصفه بـ(عميد الأدب العربي): بعمادته لآداب جامعة القاهرة، وبدونها من بعد.. وإلى أن مات عن أربعة وثمانين عاماً في السادس عشر من أكتوبر من عام ١٩٧٣م.. وإلى الآن وغد.. وإلى أن يشاء الله، لأن (عمادته) لا تخلع ولا تورث (؟) فليس هناك من لا يعرفه.. أو يعرف بعض أو كل إنتاجه التاريخي الباهر من (الفتنة الكبرى) إلى (على هامش السيرة) إلى (الشيخان) إلى (الوعد الحق) إلى (علي وبنوه)، وليس هناك من ينافسه في دراساته العميقة الحرة الرائعة عن (أبي العلاء المعري) وشعره وفلسفته وسجنه، أو عن (ابن خلدون) وفلسفته الاجتماعية، وليس هناك من يحازي أو يوازي تنوع.. نتاجه الأدبي الثر، من (الأيام) إلى (شجرة البؤس) إلى (دعاء الكروان) إلى (أديب)، بل وليس هناك - على الجانب الآخر - من لا يتمثل بـ «حياته».. باعتبارها النموذج الإنساني الأعلى لتجسيد (التحدي) البشري أمام أعنف المعوقات، وأشدها ضراوة في حياة الإنسان.. من (العمى المبكر).. إلى (الفقر

الدائم).. إلى المكانة العائلية (المتواضعة)، عندما كانت تحسب تلك (المكانة) في مطالع القرن الماضي.. بأطيانها وأراضيها التي تملكها أو التي ورثتها، الأمر الذي ضاعف من فرح والده (الشيخ حسين).. وهو يستعد لاستقبال ابنه العائد إليه من (القاهرة) بعد أن حصل على (أول) دكتوراه تمنحها الجامعة المصرية، وبعد أن أقام له رئيس الجامعة (علوي باشا) حفلاً تكريمياً خاصاً بمنزله.. ليقدم له مكافأة تفوقه، وبعد أن التقاه (الخديوي) وتحدثت عنه الصحف وقد تقرر ابتعاثه وهو (المكفوف) إلى (فرنسا) لاستكمال دراسته العليا، ليقول (والده) محدثاً.. أبناء قريته وجماعته من فلاحي (وصمايدة) مركز (مغاغة) نشوان جزلاناً: (الله في خلقه شؤون. هذا أضعف بني وأخفهم عليَّ حملاً وأقلهم نفقة. قد أتيح له ما لم يتح لإخوته الأقوياء المبصرين الذين كلفوني من النفقة ما أطيق وما لا أطيق، لم تتحدث الصحف عن واحد منهم ولم يقابل الخديوي واحداً منهم، ولم يخطر لي ولا لواحد منهم أنه قد يسافر إلى أوروبا كما سافر إليها أبناء الأغنياء. وكان قصارى ما تمنيت لابني هذا أن يجلس إلى عمود في الأزهر ليلقي الدروس على بعض طلابه.. فإذا هو مسافر إلى باريس تلك التي نسمع من أحاديثها الأعاجيب)!!

* * *

لكن هذا الشاب المكفوف الذي لم يكن ليحلم له والده بأكثر من عمود في صحن الأزهر، يدرِّس فيه لطلبته (نهج البلاغة) أو (البيان والتبيين).. كان يملك طموحاً بحجم جبل (المقطم)،

وشموخاً بارتفاع (أبو الهول) وقدرة خارقة على الدراسة والتحصيل.. حملت جامعته على ابتعاثه إلى فرنسا، إلا أن (البعثة) لم تتم.. كما كان مقرراً لها في الرابع من شهر أغسطس من عام ١٩١٤م.. بسبب اندلاع الحرب العالمية الأولى في الشهر التالي من ذات العام (سبتمبر)، ليُصدم (طه حسين) في أول فرحة حقيقية له بعد معاناته القاسية الطويلة.. مع بصره المكفوف وقلته القاتلة واستخفاف العامة به في (مغاغة)، وبين (الأزهر) وطلبته.. حيث يدرس، وفي (حوش عطا) و(درب الجماميز).. حيث يقيم، ليبقى في القاهرة مكلوماً حتى تنتهي سنوات الحرب أو تظهر معالم النصر لأي من الفريقين (الفرنسي البريطاني) أو (الألماني التركي).. ليعمل مدرساً بـ (جامعته) بأدنى أجر عرفه سلك التدريس الجامعي آنذاك.. خمسة جنيهات (!!) فيبقى على طعامه الأزهري القديم: الخبز والعسل الأسود نهاراً، وشيء من (البليلة) وحبات من التين.. مساءً.. (!!).

ومع أن دراسته عن أبي العلاء التي نال عنها درجة (الدكتوراه).. قد طلبت نشرها جريدة (السفور) تحت عنوان (في ذكرى أبي العلاء).. ثم أخذت تنشرها تباعاً على حلقات وهي تقدمه للقراء أجمل تقديم أرضاه ورفع من معنوياته، إلا أنه لم يتقاض عن نشرها مليماً واحداً، بل جاءه نشرها بما لم يكن في حسبانه.. عندما اتهمه أحد أعضاء (الجمعية التشريعية) بـ (الإلحاد)!! وهو يطالب الحكومة بإيقاف (المعونة) عن هذه الجامعة المصرية الأهلية التي تخرج (الملحدين).. بل وتمنحهم

شهادات الدكتوراه عن (إلحادهم)!! ولولا أن دافع عنه وعن تعليمه الأزهري السابق.. السياسي البارز وعضو الجمعية التشريعية آنذاك (سعد زغلول)، بل وهدده إذا لم يسحب طلبه.. بأن يدفع بأحد الأعضاء - من جانبه - للمطالبة بإيقاف المعونة الحكومية عن (الأزهر) نفسه في المقابل.. لربما تردى حال الجامعة وأغلقت أبوابها، وتضاعف بؤسه وشقاؤه!! لكن الله.. كان به رحيماً، إذ سرعان ما طلبت فرنسا - بعد أن اتضحت لها بوادر النصر على المحور الألماني التركي - بعودة الطلبة المصريين المبتعثين إليها لاستكمال دراساتهم العليا، إلا أن الجامعة صدمته بشرط دفع مرتب واحد له ولـ (مرافقه)، وأن عليه - والحالة هذه - أن يتدبر أمره بهذا المرتب (الشحيح) هو ومرافقه!! فقبل مضطراً.. ليعيش هو و(شقيقه) عيشة الكفاف في جامعته (مونبلييه).. التي كان عليه أن يحصل منها على (ليسانس الآداب) الفرنسية بعد أن يجيد اللغة (اللاتينية) كالفرنسيين تماماً.. وقبل أن ينتقل إلى (باريس) ويلتحق بـ (السوربون)، فقبل.. وأخذ يبحث له عن مدرس يعلمه هذه اللغة الجديدة عليه، والتي لم تكن في حسبانه، فكان حظه حسناً.. عندما انشقت له الأرض عن مدرس (مكفوف) جريء، تعهد له بأن يعلمه اللاتينية ويجوِّد له (فرنسيته) حتى يصبح وكأنه فرنسي من قلب «باريس».. مقابل أجر بدا له معقولاً، ومع ذلك فقد كانت قدراته المالية.. أضعف من أن تسدد عنه هذا الأجر المعقول!! فكتب إلى الجامعة يستنجدها؟ ولكن الجامعة الأهلية.. بميزانيتها المحدودة اعتذرت له بعدم قدرتها، ليستنجد بصديقه الأستاذ

لطفي السيد رئيس تحرير صحيفة (الجريدة) التي كان يكتب فيها نقده الهادئ – أما نقده الصارخ فقد كان يخص به صحيفة الحزب الوطني.. وصديقه رئيس تحريرها (عبدالعزيز جاويش) – أيام تدريسه بالجامعة المصرية الأهلية، والذي قال عنه.. بأنه سيكون (موليير) مصر في المستقبل – الأديب الفرنسي الأشهر.. الساخر والسليط –.. فأنجده مستعيناً بـ (ولي العهد) آنذاك الأمير أحمد فؤاد، رئيس الجامعة الفخري.. ليقوم بسداد أجور مدرس (اللاتينية)، والذي صدق في تعهده.. فقد أجاد طه حسين اللاتينية كالفرنسية على يديه، وحصل على (ليسانس الآداب) الفرنسية.. ليكون أول مصري أو عربي يحصل على ذلك المؤهل، وهو ما هيأ له الانتقال إلى جامعة (السوربون) وبلوغ عاصمة النور والحرية (باريس)، حيث عرّفته إحدى صدفه السعيدة – النادرة – على من كان يسميها بـ (صاحبة الصوت العذب) سوزان، التي استفزها كفاحه وجلده وقتاله على كل الجبهات.. مما جعلها تعطف عليه وعلى طموحه النادر الذي أدهشها، بل وتتعهد بأن تقرأ له روائع الأدب الفرنسي شعراً ونثراً.. بقدر ما يسمح به وقتها، فكان صوتها العذب، وقصائد الشاعر الفرنسي (راسين) الرائعة التي بدأته بها.. هما النافذة التي أطل من خلالها على (الجنة) لتصبح حياته بعدها زهوراً ملونة، وحدائق غناء، وعصافير تزقزق بين أغصانها.

* * *

لكن جنته.. لم تدم، ولم تدم الحياة فيها طويلاً، فقد عصفت بجامعته (الأهلية) أزمة مالية خانقة.. اضطرت معها لأن تسحب جميع طلبتها المبتعثين، وأن تعيدهم إلى مصر..!! فعادوا وهم يجرون خلفهم حقائب من الأحزان والدموع بدلاً من أن يحملوا على صدورهم باقات الفرح والبهجة بالعودة إلى أرض الوطن.. فكان أول النائحين الباكين هو (طه حسين)، الذي سيفتقد بعودته إلى (مصر).. ليس فرنسا وبار يس، وحياتهما اللتان مهما اشتدتا عليه.. فلن تكونا في شدة وبؤس حياته في صحن الأزهر وبين (حوش عطا) و(درب الجماميز).. ولكنه سيفتقد ذلك (الصوت العذب) الذي لولاه لما حلت الدنيا في عينيه، فكان شقاؤه مضاعفاً!! وقد زاد منه عندما اعترض أكبر أشقائه - وهو يستقبله - على (النظارة) البلاستيكية السوداء المتواضعة التي كان يستر بها (عيناه) أخذاً بأسلوب الفرنسيين في درء عين المكفوف عن الناس.. وهو يقول له: إنها (رخيصة) لا يزيد ثمنها عن (قرشين).. وهي لا تليق بك ولا بمن تلقاهم من الأساتذة وكبار المسؤولين، وأنه سيهديه نظارة سوداء جديدة ذات إطار ذهبي.. تتفق ومكانته، فكان سروره لا يوصف.. وهو يضع تلك النظارة ذات الإطا ر الذهبي - التي قدمها له شقيقه الأكبر - على أرنبة أنفه.. لكن (علوي باشا) رئيس الجامعة كانت همومه بعودة (طه حسين).. من نوع آخر، فقد كان حريصاً على أن يتم هذا (المبتعث) بعثته بنجاح.. يتكافأ وقدراته ومواهبه التي لم تخف عليه ولا على الكثيرين ممن عرفوا طه حسين.. آنذاك، فقرر أن يعيده بعد ثلاثة أشهر إلى باريس.. وأن يتحمل من جيبه

الخاص نصف مرتبه، على أن تتحمل (أسرة) طه حسين.. النصف الآخر، فكتب لشقيقه المقيم في القاهرة بذلك، ولكن (الشقيق) فاجأه بـ (اعتذاره).. وبأن الأسرة (فقيرة لا تستطيع أن تستجيب لما تُراد عليه)، وهو يطلب من الباشا (أن يستعين بالسلطان على تعليم هذا البائس)!! دون أن يعلم والد طه حسين بأي شيء من ذلك الأمر! لكن الأستاذ لطفي السيد هب مرة أخرى.. لنجدة (الباشا) ومشروعه التربوي النبيل، وأخذ طه حسين يستعد للعودة إلى (باريس) ومعه صديقه (الدرعمي) – خريج دار العلوم –.. ليقول له (علوي باشا) وهو يودعه: (أقسم لك يا بني.. ما عاد صديقك هذا – يريد الدرعمي – إلى فرنسا إلا من أجلك.. ثق بالله ولا تخف)، وركب (طه حسين) القطار إلى الإسكندرية بعد ثلاثة أشهر من عودته.. في طريقه إلى فرنسا عن طريق ميناء (نابولي) الإيطالي، ليجد في وداعه شقيقه الأكبر، الذي لم تثنه لحظة الوداع بكل شجنها.. عن أن يطلب منه استرداد برواز النظارة الذهبي الذي قدمه له عند قدومه.. لأنه يحتاج إلى (ثمنه)!! فأعطاه إياه مكلوماً.. ليأخذه القطار من (نابولي)، إلى (باريس) في ثلاثين ساعة، لم ينطق خلالها بكلمة واحدة، ولم يتحرك فيها من مكانه، ولم يدخل جوفه زاداً أو شراباً حتى ظن مرافقه (الدرعمي) بأنه خائف من هذا القطار (الأوروبي) المختلف عن قطارات مصر، وقد حاول أن يسليه.. بأشعار صديقه (المعري) أو بـ (بردة) البوصيري التي يعشقها.. أو بتلك الأغاني العربية الكلمات والفرنسية النغم التي كان يؤلفها وتستحسنها – فيما مضى – زميلاته الباريسيات

ـ في الجامعة.. دون فائدة!! فقد كانت تضطرم داخل ذلك (الجماد) الصامت غير المتحرك الذي أصبح عليه (طه حسين).. دوامات وأعاصير من الحزن والأسى والكآبة.. تقابلها نسمات رقيقة واجفة من العواطف والحنان، وهو يسترجع صورة (علوي باشا) ومواقفه.. و(لطفي السيد) ونجداته.. أمام موقفي شقيقيه: (المعتذر) عن تحمل نصف مرتبه.. والمستعيد لـ (بروازه) الذهبي، ومع ذلك التمس طه حسين العذر لهما عندما كتب مذكراته، وهو يرى أن (الحاجة) والقلة هما اللتان أجبرتاهما.. على ما فعلاه (ولم يكن ذلك صحيحاً.. من وجهة نظري)!!

لكن عندما أهلت عليهما.. نسمات (باريس)، وبلغا فندقهما في الحي (اللاتيني)، وطرق بابهما أول زائرين يستقبلانهما في باريس.. كانت صاحبة الصوت العذب (سوزان) إحداهما، تغير وتبدل كل شيء.. وتحول الصمت الطويل الكئيب إلى أحاديث متدفقة.. عن الأمس واليوم والغد.. والسوربون وأشعار راسين وإبداعات فولتير وروايات شاتوبريان، وليبدأ منذ تلك اللحظة.. في رسم خطته لكتابة رسالته للدكتوراه عن (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية)، ليكتشف أنه في حاجة للحصول قبلها.. على (دبلوم الدراسات العليا) في (التاريخ القديم) الذي سيؤهله لكتابة وتقديم رسالته.. وكما تقضي بذلك أنظمة (السوربون)!؟

على أن أحاديث (السياسة) كأحاديث (الدراسة).. كأحاديث (الحب)، يختلط بعضها ببعض على الدوام في حياة الطلبة عموماً.. والمبتعثين منهم خاصة، فبعد أن انفض (مؤتمر السلام)

الذي عُقد في (فرساي) بعد الحرب.. وبدأت الشعوب تبحث عن استقلالها وفقاً لمبادئ الرئيس الأمريكي (ويدرو ويلسون).. الأحد عشر، أعلن البريطانيون عن عزمهم منح (مصر) استقلالها عبر (مفاوضات).. انقسم المصريون فيها حول من يفاوض بريطانيا: «الحكومة» أم «الوفد».. وإلى الحد الذي جعل (الوفد) وأنصاره يسيِّرون المظاهرات في شوارع القاهرة وهي تهتف (الحماية على يد سعد خير من الاستقلال على يد عدلي)..!!

* * *

كانت الدراسة تستغرق (طه حسين).. آنذاك، والتحضير لنيل (دبلوم الدراسات العليا) يشغله، و(سوزان) صاحبة الصوت العذب تقرأ له متون الفرنسية واللاتينية، وهو يدرس بـ (أذنيه) ويكتب بـ (لسانه).. حيث جاءته الجرءة أخيراً وبعد طول تردد في أن يفاتحها بـ (حبه) لها، فهي التي (جعلت شقاءه سعادة، وضيقه سعة، وبؤسه نعيماً، وظلمته نوراً).. ولكنها اعتذرت عن أن تبادله هذا الحب، دون أن تخل بالتزامات الزمالة والصداقة نحوه، وهو ما خفف عنه (صدمة) رفضها.. فهي ماتزال تقرأ له المتون وتصحبه إلى (السوربون) ذهاباً أو إياباً، وتتابع كل صغيرة وكبيرة من شؤون دراسته حتى حصل على (دبلوم الدراسات العليا)، وبدأ إعداده لرسالة الدكتوراه عن (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية).. لتقرأ عليه (سوزان) بداية: الترجمة الفرنسية لـ (المقدمة).. التي كتبها ابن خلدون عن دراسته، والتي عُرفت واشتهرت بين الدارسين والأدباء والشعراء والمثقفين.. بأكثر من (الدراسة) نفسها..!

وفجأة.. مرضت (سوزان)..! مرض الصوت العذب.. ونامت صاحبته على السرير الأبيض مع قدوم صيف ذلك العام، ليكون أول من يزورها ويتردد عليها للاطمئنان على صحتها، ليعيد عليها وهي على السرير الأبيض.. قصة حبه لها وأمنياته في أن يجمعهما بيت واحد، فلم تصدمه باعتذارها هذه المرة.. ولكنها أخبرته وهي تستعد لمغادرة المستشفى، والذهاب إلى جنوب فرنسا.. لقضاء إجازة الصيف مع عائلتها.. بأنها ستفكر ملياً في الأمر، فإذا كتبت له من هناك.. تدعوه للقدوم إليها، فإن ذلك يعني.. أنها أجابت طلبه!

وغادرت المستشفى.. وباريس إلى الجنوب، بينما بقي هو في باريس.. ينتظر على أحر من الجمر تلك الرسالة الأمل: التي قد تأتي.. وقد لا تأتي، بين إشفاق زملائه عليه من صدمة رفض قد لا يحتملها..؟!

لكن قدره الرحيم.. جاءه بـ (الرسالة) الأمل قبل أن ينتهي شهر أغسطس من ذلك العام، ليطير إلى الجنوب.. ويتقدم لخطبتها من أبويها، فيكون قبولهما، لتصفو له الأيام.. فيكرس حياته وعلى نحو سعيد مطمئن لم تعرفه من قبل.. لدراسته وخطيبته التي سرعان ما أصبحت (زوجته).. رغم مماحكات إدارة البعثة وأنظمتها التي تقضي بعدم السماح للمبتعث بـ (الزواج) قبل أن ينتهي من دراسته!!

* * *

ليعود أخيراً إلى القاهرة بعد انقضاء سنوات بعثته بحلاوة أيامها وكفاح لياليها.. محملاً بثلاث شهادات: (ليسانس آداب، ودبلوم دراسات عليا ودكتوراه دولة).. و(لغتين) هما الفرنسية واللاتينية.. و(مكانة) لم يحظ بها مبتعث من قبل، ويده معلقة بيد (سوزان)، وعلى صدره ابنتهما البكر (أمينة)، ليبدأ حياته العلمية والعملية.. محاضراً.. فأستاذاً.. فعميداً.. فـ «مديراً» لجامعة الإسكندرية.. فوزيراً.. فرئيساً لـ (اللجنة الثقافية للجامعة العربية)، وليبدأ معها حياته الأدبية.. بـ (أول) سطورها (حديث الأربعاء).. فكتابه المدوي (في الشعر الجاهلي) الذي جر عليه مجدداً تهمة (الإلحاد)، بعد أن رفع ثلاثة من أعيان مصر (بينهم شيخ الجامع الأزهر).. بلاغات إلى (النائب العام) يتهمونه فيها بـ (الطعن) على القرآن الكريم، و(التشكيك) في نسب الرسول الكريم (صلعم)، و(التعدي) على دين الإسلام.. دين الدولة!! لكن النائب العام المستشار القضائي (محمد نور).. أرجأ أصحاب البلاغات إلى حين عودة الدكتور طه حسين من إجازته السنوية، ليبدأ التحقيق معه في تلك الاتهامات.. وفي مجمل ما جاء في الكتاب، في أكتوبر من عام ١٩٢٦م لتنتهي تلك التحقيقات في مارس من العام الذي يليه – عام ١٩٢٧م – بقرار النائب العام – الذي ربما كان هو وحده – الذي أعطى صفة (العدالة) للقضاء المصري منذ ذلك اليوم وإلى يومنا هذا.. عندما قال النائب العام في ختام قرار النيابة (وحيث إنه من ذلك يكون القصد الجنائي غير متوفر.. فلذلك، تحفظ الأوراق إدارياً)..!؟

ودارت الأيام، ليأتي هذا المتهم بـ (الإلحاد) عام ١٩٥٤م.. إلى المملكة بحكم رئاسته للجنة الثقافية لجامعة الدول العربية، التي كانت تعمل على وضع مخطط ثقافي كبير، يعمق الفهم والروابط بين أبناء الأمة العربية الواحدة.. ليقول وهو يستقبل الكعبة المشرفة، داعياً: (اللهم لك الحمد. أنت نور السموات والأرض ومن فيهن. أنت الحق ووعدك الحق. والجنة حق والنار حق والمنون حق والساعة حق. اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت. فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أعلنت وما أسررت. أنت إلهي.. لا إله إلا أنت)..!! فكان (دعاؤه) الذي قد لا يحسن حفظه كثير من أدعياء الإيمان والتقوى.. خير برهان على صدق إيمانه، وخير دليل على دقة ما انتهى إليه قرار النائب العام المستشار (محمد نور).. عندما أمر بإغلاق ملف القضية وحفظ الأوراق إدارياً!!

* * *

نعم.. في البدء، كان طه حسين.. (ظاهرة) بين المكفوفين، ثم غدا (معجزة) بتحصيله المعرفي المحير، لينتهي (علماً) وراية تلهم المكفوفين أينما حلوا، وتقود كثيراً من المبصرين.. حيثما كانوا، ليكون مستقره في الختام: على صفحات الخلود.. بين صفوة الخالدين.